

سمخ كما عرفتها الجزء الرابع، هؤلاء علموني في سمخ

ربما كان من الضروري وأنا أكتب ما يشبه سيرة حياتي الشخصية، أن أخرج على قراءاتي في مرحلة الطفولة وإن كنت سوف أكتب كما آمل كتاباً أو كتباً حول هذه القراءات على غرار ما فعله المفكر المصري الأستاذ (سلامة موسى) في كتابه الشهير الذي أصدرته دار الكاتب المصري في أربعينيات القرن العشرين تحت عنوان (تربية سلامة موسى) أو تحت عنوان آخر في طبعة أخرى هو (أولئك علموني) ولكن لا بأس بأن أقول أنني كنت أقرأ الصحف والمجلات التي كان يشتريها والدي، ومنها صحيفتا (الدفاع، وفلسطين) وبعد ذلك صحيفتا (الوحدة، والحرية) الأسبوعيتان وكلها صحف فلسطينية ومجلة الاثنيين والدنيا المصرية، ومجلة المهماز التي كانت تصدرها (عصبة التحرر الوطني) وكذلك مجلة (الراديو المصري) وكان فيها صفحة للأطفال تحت عنوان (دنيا الأطفال) وعندما لاحظ والدي شغفي الشديد بالقراءة كان يعود من بلدة طبريا المجاورة ومن مكتبة صديقه المجاهد (أحمد منصور) الذي كان يوزع الصحف العربية، بالمزيد من المجلات وكتب الأطفال التي كان يصوغها الكاتب المصري الشهير الأستاذ (كامل الكيلاني) تلك الكتب ومنها (السندباد البحري، ورحلات غليفر وروبسون كروزو) صدرت فيما بعد في سلسلة المكتبة الخضراء هذه عجلة لا بد منها حول قراءاتي في مرحلة الطفولة لكي أفسر كيف كنت متفوقاً في المدرسة الابتدائية، وكنت أكافأ على هذا التفوق مكافأة عجيبة، فقد كان بعض أساتذة الصف السادس أو السابع الابتدائيين يسألون التلاميذ أسئلة، فإذا عجزوا عن أجابتها، كان الأساتذة يستدعونني إما من الصف الثالث أو الرابع الابتدائي، فقد كان المنهاج في الصف الأدنى يستعاد بشيء من التوسع في الصف الأعلى، لكي أجيب على السؤال، وبعد التصفيق كان الأستاذ يسلمني مسطرة لكي أضرب بها طلبة الصف أجمعين على أيديهم، وقد فرحت أول الأمر بهذه المكافأة ولكن بعد أن تكررت مرتين أو ثلاث مرات، ربط لي طلبة الصف جميعاً خارج المدرسة بعد انتهاء الدوام وأين الجنب الذي يوجعك وبعدها تنازلت عن هذه المكافأة أو هذه الجائزة الرائعة.

ولا بأس بأن أقول إن مدرستنا الابتدائية لم تكن تخلو من المباحج أو المسرات الصغيرة كالذهاب في رحلات مدرسية إلى القرى أو الأماكن الخلوية المجاورة مثل قرية (العبيدية) مثلاً على نهر الأردن بعد خروجه من البحيرة وكان فيها ضريح لأحد أولياء الله الصالحين واسمه (مزيغيت) وكان أهل القرى المجاورة يقسمون أي يطفون به، وعندما تقدم بي السن وعرفت شيئاً عن اللغة الأمازيغية، في الأقطار المغاربية وهي (لغة الأمازيغ) أي البربر وأحسب كلمة البربر جاءت من اللغة غير المفهومة عند غير أهلها فقد كان الناس يصفون الثرثرة أو الكلام المشوش السريع غير المفهوم، بأنه البربرة كذلك كان الرومان القدماء يصفون شعوب الشمال الجرمانية بالبرابرة، وفي مصر يسمون أهل منطقة النوبة بالبرابرة، ومن هنا جاء لقب الممثل الكوميدي المصري (علي الكسار) الذي كان يقلد لهجة أهل النوبة، لهجتهم العربية وليس لغتهم النوبية بأنه (بربري مصر الوحيد).

على كل حال، عندما عرفت بأمر اللغة الأمازيغية، تذكرت قبر (مزيغيت) في بلدة العبيدية قرب بلدتي أي سمخ

فاجتهدت بأن (مزيجيت) لا بد وأن تكون من بقايا الدولة الفاطمية التي جاءت من المغرب إلى المشرق، أي عكس الفتوحات العربية الإسلامية القديمة التي انطلقت من المشرق إلى المغرب والأندلس (كان الأندلس أي إسبانيا العربية يعتبر جزءاً من المغرب) وقد عزز هذا الاجتهاد أو الافتراض عندي، أن (الدولة الفاطمية كانت تدعى الدولة العبيدية أيضاً).

وبالتالي فمن الممكن أن تكون بلدة العبيدية هذه، قد حملت اسماً فاطمياً أو عبيدياً وقد سألت الباحث الفلسطيني الأستاذ (نوح أبو الهيجاء) وكان شديد الاهتمام بهذه الأمور، فوافقني على هذا الاجتهاد، وكذلك كنا نذهب في تلك الرحلات المدرسية إلى بلدة (السمراء) المجاورة على شاطئ البحيرة، والتي هدمتها إسرائيل وأقامت على أرضها مستعمرة (هاؤون) وكذلك إلى قرية (القدسية) على نهر اليرموك وكان جل سكانها، بل كانوا جميعاً من (العجم) أي الفرس، كذلك فقد كانوا جميعاً على (المذهب) أو ربما على (الدين البهائي) ولكنهم كانوا يعرفون العربية جيداً بل يتحدثون بها مع من في جوارهم من العرب بطلاقة، كما كانوا يعتمرون الكوفية والعقال ويرتدون القنباز أيضاً ومن مباحج القرية ومسراتها الصغيرة (السيان) في الربيع، وإن لم تعرف كلمة (السيان) هذه، فكنا نلعب في حقول القمح التي كانت نباتاتها عالية بحيث تخفينا ونحن نخفي بعض من بعض، نبحث بين تلك الأعشاب التي تكاد تشبه منطقة (السافانا) أي مزارع الذرة في جنوبي الولايات المتحدة الأمريكية ولم يكن الأمر يخلو أحياناً من بعض (الأفاعي) التي كنا نطاردها بالحجارة، كما أن نهر الأردن عند مخرج البحيرة، كانت ضفافه لا تخلو من الأفاعي المبرقشة (الحيايا) أو السوداء أي (الحنش) ومن حكايا المدرسة الابتدائية أن معلم التربية الدينية، كان يعدنا بعلماء إضافية إذا ذهبنا إلى المسجد أو الجامع، فلم يكن أهلنا في سمخ يستخدمون كلمة المسجد، وذات مرة وعندما ارتقى خطيب الجامع المنبر ليخطب خطبة الجمعة رأى الأطفال، أي طلبة المدرسة يغطون الصف الأول من الجامع، فقال لنا: (يا بتنصرفوا من الجامع، يا بتصلوا بآخر الناس) أي إما أن تغادروا الجامع، أو تجلسوا في الصفوف الأخيرة، فصرنا نصلي (في آخر الناس) .. ولقد مرض أستاذنا الطيب في مادة الديانة، وهو الشيخ (أحمد عنبتاوي) وكان من خريجي الأزهر الشريف، ودخل مستشفى (الإرسالية الاسكتلندية) في مدينة طبريا المجاورة، ويعرف بمستشفى (تورنس) وكان قائماً إلى جوار شاطئ بحيرة طبريا، ومبنيّاً على غرار المدن الاسكتلندية، كما رأيته في الصور، أو في أفلام السينما، فذهب طلاب الصف السابع أي الصف النهائي في (مدرسة سمخ الأميرية للبنين) يعودونه وهم يحملون بعض الهدايا البسيطة، وفي ذلك اليوم من الله عليه بالشفاء، وقد تأثر أستاذنا الشيخ بهذه الزيارة وعدنا معاً في الحافلة نفسها إلى البلدة ... وفي نهاية العام الدراسي أقيمت حفلة لتوزيع الشهادات على المتخرجين، أي طلبة الصف السابع، ودعي إليها آباء التلاميذ المخرجين، وأعيان القرية وكبار موظفيها، وكان الوالد رحمه الله إذ ذاك.

قد تعرض لحادث كسرت فيه ساقه ولكنه حضر مستعيناً بعكاز، فصفق له شهود الحفل تصفيقاً مدوياً، ولا

حاجة إلى تكرار القول إنني كنت متفوقاً بل الأول على ذلك الصف السابع الابتدائي، صف (الخريجين)، ولكنني تذكرت هذا عندما رأيت فيلماً أميريكياً، دارت أحداثه في إحدى قرى أميرিকা اللاتينية، وكان بين تلك الأحداث حفلة (تخرج) أقامتها مدرسة القرية الابتدائية، وجاء أحد آباء التلاميذ ومسح من عينه دموعاً وهو يقول: (لسنا نتخرج كل يوم)، قالها بضمير الجمع المتكلم أي (نحن) لا نتخرج كل يوم ولعل الوالد رحمه الله كان يقول في نفسه تلك اللحظة، وبضمير الجمع المتكلم : (لسنا نتخرج كل يوم) وكأنه هو الذي يتخرج بتخرج ابنه من المدرسة الابتدائية .. ولقد اكتمل فرح والدي ذلك اليوم، لأن شقيقي (سامي قنديل) الصيدلي الكيماوي فيما بعد قد استهل الحفلة بتلاوة آية من الذكر الحكيم، فقد كان صوته جميلاً في طفولته، كما أنني شاركت في تمثيلية عنوانها (إسلام عمر) أي الخليفة الراشد الثاني (عمر بن الخطاب) عليه السلام، وكنت أمثل دور زوج شقيقة عمر، الذي داهم منزل شقيقته قبل أن يهديه الله إلى الإسلام، وأما دور عمر نفسه فقد مثله الزميل (حسن قطار عليان) الذي كان يقيم في (تل القصر) أو (التوافيق) وهو أول مرتفعات الجولان في الأراضي الفلسطينية ... بطبيعة الحال كانت المسرحية بسيطة لم يؤلفها (توفيق الحكيم) مثلاً، أو الشاعر المسرحي الفلسطيني (محي الدين الحاج عيسى الصفدي) مؤلف المسرحية (مصرع كليب) سيد قبيلة ربيعة بن وائل وشقيق (الزير سالم) ولم يؤلفها الشاعر المسرحي الفلسطيني (حسن علاء الدين) من أبناء القدس وعنوانها (امرؤ القيس) هكذا نرى أن شعراء فلسطين زمن الاستعمار البريطاني كانوا يفيضون بالمشاعر القومية العربية وليس الوطنية الفلسطينية وحسب، فقد كانوا يستلهمون التاريخ العربي القديم.

وعلى أية حال، ورغم بساطة تلك المسرحية التي مثلناها في حفلة التخرج، فربما كانت أول عرض (مسرحي) يشهده أهل قرينتنا أي قرية سمخ على شاطئ بحيرة طبريا.

خاص مؤسسة فلسطين للثقافة، رابط المقال الأصلي:

<https://www.thaqafa.org/site/pages/details.aspx?ItemId=2194>